

تأثير الإسلام في الرثاء العربي

الرثاء هو مدح الميت بما كان يتصف به من صفات الكرم والشجاعة والشرف. وهو من موضوعات الشعر العربي بل هو من أبرزها وأصدقها بالنفس البشرية لأنه أصدقها وأكثرها تعبيراً عن المشاعر الإنسانية لأنه يرتبط بالموت وبالحنين على من قد ماتوا ويبكون عليهم الشعراء بكاء يصدر عن أصدق المشاعر والعواطف

الرثاء في اللغة: رثيت الميت رثياً و رثاء و رثاية و مرثاة و مرثية و رثوته: بكيته و عددت محاسنه و نظمت فيه شعراً وحديثاً عنه^١. الندب: كالرثاء بكاء الميت و تعديده محاسنه^٢ التأيين: الثناء على الشخص بعد موته^٣

الرثاء في الاصطلاح: لا يوجد إلا بعض التعاريف لمصطلح الرثاء ولم تكن التعاريف بنص واضح وإنما هي إشارات للمدلول اللغوي الذي تتطور بمرور الزمن وآل إلى المدلول الاصطلاحي له. وقد عرف الرثاء بأنه " موضوع أدبي يقوم في بنيته الأساس على الحزن على الميت" وقيل: هو تعداد مناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه واستعظام المصيبة فيه. ولابن الرشيق ومن تبعه رأي مختلف من غيره من أنه لا فرق بين المدح والرثاء إلا أنه يجب في الرثاء أن توجد ألفاظ يدل على أن هذا ثناء على الميت. وهو يقول أيضاً أن الرثاء يكون على الملوك والكبار فقط (انظر العمدة لابن رشيق)

تطور الرثاء العربي

بدأ فن الرثاء عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئن الميت في مرقده ولا تصيب روحه الأحياء بشر بعده. ثم بدأ أن تخفى هذه الغاية حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن على الموتى ومحاولة ذكرهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم مع التفكير في القدر وعجز الإنسان أمامه وعبثه بهم ولعبه بحياتهم وموتهم. وما زال الرثاء في كل العصور وفي كل الأمم يشتمل على العقائد التي يعتقدونها أهل ذلك العصر عن الموت وما يتعلق به.

ولعل أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الملوك في اليمن والأمرء في الحيرة والغساسنة في الشام. فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيدهم لأعمالهم. وكانت هذه الكتابة الصورة الأولى للتأيين والثناء بفضائل الميت على أنها صورة ساذجة. وأما الصورة الجاهلية فكان يطول فيها أبياتها كما أن الشعراء الجاهليين يستخدمون فيها وسائل فنية كثيرة من التشبيهات والاستعارات بالإضافة إلى عنايتهم التامة بالأوزان والقوافي حتى يشعر بها الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم.

أنواع الرثاء الجاهلي

كان الرثاء في الأمة العربية تدور حول ثلاثة أنواع وهي:

١- **الندب:** بكاء ونواح على الميت بألفاظ مؤلمة شديدة الحزن تسيل بها الدموع من العيون ويصحب

ذلك لطم على الوجوه والجيوب بالأكف. وكان الرجال يشاركون فيها النساء ويكون ويُكون. وكان

يصاحب هذا النوع من الرثاء أحياناً ضرب الدفوف لزيادة جو العزاء حزناً وفجيعاً. وقد نهى

^١ القاموس المحيط

^٢ المصدر نفسه

^٣ المصدر نفسه

الإسلام مثل هذه الأفعال كلها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوة الجاهلية "

٢- التأبين: وهو ضرب من الرثاء يتخذ شكل الثناء على الميت فيذكر فضائله ويعدد محامده وكثيرا ما ينحلون جميع الفضائل والمثل العليا مثل الشجاعة والكرم والوفاء وحماية الجار والحزم والحلم وما الى ذلك من خصائل الخير

كما تقول الخنساء في أخيها صخر

قد كان حصنا شديدا الركن ممتعا

أغر أزهرا مثل البدر صورته

٣- العزاء: وهو ضرب ثالث من الرثاء، يتجه إلى الفكر في رحلة العمر ومصير الناس فيذكرون

الموت ويتعزون عنه بأنه حقيقة لا بد منها ولا يسلم منه غني ولا فقير ولا حاكم ولا غيره. وقد سبقهم إليه الأجيال الماضية من سلاطين واناس عاديين. ويظهر هذا في أبيات قس بن ساعدة الأيادي:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غاب

أيقنت عني لا محالة حيث صار القوم صائر^١

نظرة عامة عن الرثاء الجاهلي:

وكان الشعراء الجاهلين لا يتأملون عن ظاهرة الموت الا سطحيا ولم يكن في استطاعتهم ان يتعمقوا في التأمل عما وراء الموت والحياة بعده بحكم أميئتهم وثنيتهم وظروفهم ولأنهم كانوا لا يؤمنون ببعث أو حساب أو آخرة وإنما هي حياتهم يحيونها بخيرها وشرها وحلوها ومرها ثم يكون في النهاية الهلاك والفناء والعدم. ولذا للرثاء الجاهلي الذي هو الأصل في الرثاء العربي خصائص وملامح. وهي ما يلي:

١. التعزي مع التفجع: يرثي الشاعر على من فارق منه بقلب حزين وكلمات مفجعة مع أنه يعترف بحقيقة الموت ويصاحب التفجع التعزي والتأسي. كما قال لبيد بن ربيعة في رثاء أخيه أربد:

بلىنا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وقد كنت في أكتاف جار مضنة ففارقني جار بأربد نافع

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدو بلاقع

وما المرأ إلا كالشهاب وضوءه يحور رمادا بعد إذ هو ساطع

وما البر إلا مضمرات من التقى وما المال إلا معمرات ودائع

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بد يوما أن ترد الودائع^٢

٢. استعظام الموت على الرؤساء الكبار: يلجأ الشاعر إلى المبالغة وإشراك الطبيعة في أحزانه وتتعجب من الموت ويراه بعيدا عن الكبار ويستعظمه. كما يروى عن النابغة في حصن بن حذيفة بن بدر:

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح

^١ ديوان الخنساء ص ٢٢، ٢٣

^٢ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ص ٢١٧

^٣ ديوان لبيد بن ربيعة تحقيق إحسان عباس ص ١٦٨ طبعة الكويت ١٩٦٢م

ولم تلفظ الموتى القبور ولم تنزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعمًا قليل ثم جاء نعيه فظل ندي الحي وهو ينوح^١

٣. ضرب المثال بالكائنات وتعزي بها: وكان من عادة الشعراء الجاهلية كما يقول ابن رشيق أن يضرّبوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة والأمم السابقة، والوعول الممتنعة في قلال الجبال والأسود الخادرة في الفياض وبحجر الوحشي المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر^٢. وكان الشعراء حينما يسلكون هذا المنهج يلتمسون العزاء والسلوى في هذه المخلوقات والكائنات كما رأينا في أبيات قس بن ساعدة الأيادي.

٤. الرثاء على نفسه: كان بعض الشعراء في الجاهلية يرثون على أنفسهم وينحون على أنفسهم قبل أن ينوح عليهم أهلهم إذا أحسوا داعي الموت. ويكون ذلك منهم على سبيل العظة والاعتبار والتذكير بالموت. يقال إن أول من بكى على نفسه يزيد بن حذاق، وهو يقول:

هل لفتى من بنات الدهر من واق أم هل له من حمام الموت من راق
قد رجّلوني وما رجت من شعث وألبسوني ثيابا غير إخلق
ورفعوني وقالوا أيما رجل وأدرجوني كأنني طي مخراق^٣

٥. الدعاء بالسقيا لقبر الميت: ويكثر في الرثاء الجاهلي أيضا الدعاء بالسقيا لقبر الميت وقد يأتي هذا الدعاء ختامًا للقصيد كما نرى في قصيدة الخنساء حيث تقول:

سقيا لقبرك من قبر ولا برحت جود الرواعد تسقيه وتحلب^٤

٦. عقر الإبل على الميت: وكان من عادة العرب في الجاهلية عقر الإبل على الميت إكرامًا له وتحية لمتواه. وهذا ما قام به أحد أصدقاء النجاشي وهو يقول:

عقرت على قبر النجاشي ناقتي بأبيض غضب أخلصته صياقله
على قبر من لو أنني مت قبله لهانت عليه عند قبري رواحله^٥

٧. صب الخمر على قبر الميت: ومن ألوان الرثاء في العصر الجاهلي أن يحي الإنسان صديقه بعد موته بصب الخمر على قبره فيأتي الندمان ويشربون الخمر وعند ما تدور الكأس ويأتي دور الصديق الميت يصبون الخمر على قبره إحياء لذكره! وهذا ما حصل للأعشى الذي اشتهر بحبه للخمر ولذلك ظل قبره رطبًا نديًا

يقول الأسدي في رثائه لنديمه
أقيم على قبريكما لست بارحا أصب على قبريكما من مدامة
وأبكيكما حتى الممات وما الذي طوال الليالي أو يجيب صداكما
فان لم تذوقاها أبل ثراكما يرد على ذي عولة إن أباكما^٦

^١ العمدة لابن رشيق ج ٢ - ص ٣٥٨

^٢ تاريخ الأدب العربي - أحمد حسن زيات ص ٢٠

^٣ انظر المفضليات ص ٣٠٠

^٤ ديوان الخنساء ص ٢٣

^٥ الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٣ ص ١٢٥٠

^٦ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ٩ - ص ١٢٦

٨. رثاء الرجال ورثاء النساء: إذا قارنا بين رثاء الرجال ورثاء النساء وجدنا رثاء النساء أكثر جزعا وأعظم لوعة وأرق عاطفة. لأن طبيعة المرأة على ما يبدو أقرب الى البكاء و الأسى من طبيعة الرجل. يقول ابن رشيقي : النساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة وأشدهم جزعا على هالك لما ركب الله عز وجل في طبعهن من الخور وضعف العزيمة وعلى شدة الجزع يبني الرثاء

ومن أشد شعر الرثاء لوعة وأسى وحرقة ما جادت به الخنساء التي كان لها القدر المعلى في هذا الفن في رثاء أخيها صخر. ويعتبر هذا الشعر مثلا حيا يظهر فيها اللوعة والأسى وغلبة الجزع والإصرار على الأحزان ورفض السلوان : تقول الخنساء

ما بال عينك منها دمعها سرب أراعها حزن أم عاها طرب
أم ذكر صخر بعيد النوم هيجعها فالدمع منها عليه الدهر ينسكب
يا لهف نفسي على صخر إذا ركبت خيل لخيل تنادي ثم تضطرب^١

وهذه الصورة الجاهلية استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة تنمو وتتطور حسب التأثير بحياة العرب واعتقاداتهم وعقولهم وبما حدث فيهم من الحوادث المختلفة. ومع ذلك كله كان الرثاء العربي في كل العصور امتدادا من الرثاء الجاهلي الأصلي.

تأثير الإسلام في الرثاء الجاهلي

عندما جاء الإسلام هز العقلية العربية وترك الفكر ليعمق به التأمل ويتخذ له مسارا يتعلق بفكرة البعث وبحقيقة الإيمان بالله وبطلان ما عداه. فعرف العرب أن هناك بعثا وحسابا وجنة ونارا. فقد كان هناك وجه آخر للأمر كله كان هناك التسليم بقضاء الله وقدره والامتنال لحكمه كما كان هناك الرجاء في حسن المآل والاعتقاد في حياة أخرى باقية هي خير من حياتهم الدنيا. ويظهر هذا المعنى فيما قالت الخنساء التي كانت قبل الإسلام أشد الشعراء لوعة وحزنا في الرثاء حينما نعي إليها أبناءها الأربعة في معركة القادسية. تقبلت مصرعهم بصبر جميل ولم تقل إلا قولها المشهور: " الحمد لله الذي شرفني بموتهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"^٢

كذا أصاب للرثاء الجاهلي غير قليل من التطور والتغيير في صدر الإسلام. فقد استطاع الإسلام بتعاليمه الرفيعة أن يغير كثيرا من المفاهيم كما أرسى نظرة جديدة إلى الحياة والموت وما بعده على النقيض مما يعتقده الجاهليون. فقد كان لتلك النظرة أثر واضح فيما صاغه الشعراء المسلمون من رثاء. فقد وردت على ألسنتهم معان جديدة منذ بدأ الصراع مع المشركين في مكة والمدينة. وأثرت هذه المعارك والصراعات الشعراء وأوجدت شعراء مسلمين يزودون عن الإسلام ويدافعون عنه.

وقد صدرت منها مرث كثيرة وكان الرثاء في هذه الفترة يسير في اتجاهين اتجاه تقليدي هو امتداد في أوزانه وقوافيه من الرثاء في العصر الجاهلي ويمثله أدق تمثيل شعراء قريش ومن تبعهم واتجاه تجديدي يستمد معانيه وأفكاره من الحياة الإسلامية الجديدة ويتأثر في صياغته وأسلوبه بالقرآن الكريم والأقوال النبوية

١ تعاليم الإسلام

^١ ديوان الخنساء ص ٢٢
^٢ أعلام الأدب العربي ص ٨٦

ومن هذا الاتجاه نجد حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم يبكي على قتلى بدر ويتذكر أصحابه فيها ومنهم رافع ونفيع وسعد ويؤكد في رثاءه لهم على المعاني الدينية الجديدة من الإيمان بالقدر والأجل المحدود والجنة وما فيها من نعيم يقول:

ألا يا قوم هل ما جم نافع
ذكرت عصرا قد مضى فتهافتت
صباة وجد ذكرتني أحبة
وسعد فأضحوا في الجنان وأوحشت

وهل ما مضى من صالح العيش راجع
بنات الحشا وانهل مني المدامع
وقتلى قضا فيهم نفيع ورافع
منازلهم والأرض منهم بلاقع^١

ثم يشير الشاعر حسان إلى شدة القتال في بدر وما وقع من الصحابة الأجلاء وكذا يقول عن الموت والقضاء بأن الموت قدر ولكل أجل كتاب والملك لله وحده والله يفعل ما يشاء، أنهم يرجون بهذا الشفاعة من الله والجنة. وهذه المعاني كلها جديدة لا توجد في الرثاء الجاهلي. يقول حسان

فما بدلوا حتى توافوا جماعة
لأنهم يرجون منه شفاعة
وذلك يا خير العباد بلاونا

ولا يقطع الآجال إلا المصارع
إذا لم يكن إلا للنبیین شافع
ومشهدنا في الله والموت نافع^٢

٢ رثاء أعضاء جسم الإنسان: ومن خصائص الرثاء في عصر الإسلام رثاء أعضاء جسم الإنسان فأحيانا يرثي الشاعر على الرجل أو اليد أو العين أو ما إلى ذلك من أعضاء الجسم البشري لما أثر فيهم الأحاديث النبوية حيث قالت عن خلود هذه الأعضاء بسبب استشهادهم في سبيل الله ومن هذا الرثاء ما قاله عبيدة بن الحارث الذي تصدى مع حمزة وعلي لعتبة وشيبة والوليد حين دعوا إلى المبارزة قبل القتال في غزوة بدر وقد قطعت رجله أثناء المبارزة وما عاش بعدها إلا قليلا. فنجد في هذه القصيدة يحتسب رجله عند الله ويرجو أن يبده بها في الجنة لينعم بالعيش عيش الآخرة مع الحور أمثال التماثيل يقول:

فإن تقطعوا رجلي فإني مسلم
مع الحور أمثال التماثيل أخلقت

أرجو بها عيشا من الله دانيا
مع الجنة العليا لمن كان عاليا^٣

وكذلك يرثي ابن مظعون لعينه كان قد فقدها إثر ضربة:
فإن تك عيني في رضا الرب نالها
فقد عوض الرحمن عنها ثوابه

يدا ملحد في الدين ليس بمهتد
ومن يرضه الرحمن يا قوم يسعد^٤

٣ كثرة رثاء النفس: وقد أكثر الشعراء في عصر الإسلام رثاء النفس وهو لم يكن منتشرًا بين الشعراء في العصر الجاهلي ولم يستخدمه على هذا النحو الكبير. ومن ذلك قصيدة لأبي ذؤيب الهذلي بكى فيها نفسه بكاء حارا أو ذكر بناته وهي يضربن رؤوسهن بالنعال وصدورهن بالجلود، والرجال يبحثون له عن بئر يلقونه فيها ليواروا جسمه وهو يقول:

^١ ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤١
^٢ ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤١
^٣ السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ - ص ٢٣
^٤ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني ج ١ - ص ١٠٤

إذا راح عني بالجلية عائدي

أعادل أبقى للملامة حظها

.....
وأصقن ضرب السيت تحت القلائد
قليبا سفاها كالإماء القواعد^١

.....
وقام بناتي بالنعال حواسرا
يودون لو يفدونني بنفوسهم

٤ رثاء الأسرى والمفقودين : ومن المعاني الجديدة التي تناولها الشعراء في العصر الإسلامي رثاء الأسرى والمفقودين واحتسبوا عند الله موتاهم وعزوا أنفسهم بما ينتظر من نعيم وخلد وأجر عظيم يقول الشاعر شمر دل – وهو يحتسب عند الله موت أخيه وقد اغتيل ، ويدافع عن ثغر من ثغور الإسلام-
لعمري لئن غالت أخي دار فرقة
وصلت به أثقالها الأرض وانتهى

.....
ولوعة حزن أوجع القلب داخله
فكان أخي رمحا ترفض حامله^٢

.....
إلى الله أشكو لا إلى الناس فقدته
وتحقيق رؤيا في المنام رأيتها

٥ الدعاء للميت بالمغفرة : كما أشرنا من قبل كان من عادة الشعراء في العصر الجاهلي أن يدعوا بالسقيا للميت. أما الشعراء المسلمون فيدعون للميت بالرحمة ويستمطرون بالمغفرة كما نرى في قول حسان بن ثابت في رثاء شهداء الرجيع الحادثة المشهورة، وهو يقول :

يوم الرجيع فأكرموا فأثيبوا^٣

صلى الإله على الذين تتابعوا

٦ الألفاظ القرآنية : وشاع في المراثي في عصر الإسلام خاصة في مراثي المسلمين الألفاظ القرآنية مع المعاني الدينية وكثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فلا يكاد رثاء يخلو من هذه الألفاظ وتلك المعاني وكذلك لا يخلو من الاقتباس بصورة من صورته المختلفة فصارت الألفاظ سهلا بسيطا وتأثر سائر أنواع الأدب بما فيه النظم والنثر بأسلوب القرآن العظيم وأقوال النبي الكريم . ويظهر هذا فيما يرثي به حسان بن ثابت ثاني الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

بأبيض يتلو المحكمات منيب
أخي ثقة في النائبات نجيب
سريع إلى الخيرات غير قطوب^٤

وفجعنا فيروز لا درّ دره
رؤف على الأدنى غليظ على العدا
متى ما يقل لا يكذب الفعل قوله

ومع هذا التأثير كله كان الرثاء في عصر الإسلام امتدادا من الرثاء الجاهلي في أوزانه وقوافيه فنجد المراثي في عصر الإسلام توافق تماما بالمراثي الجاهلية في البحور والأوزان التي اكتشفها الخليل فيما بعد. والله أعلم

^١ ديوان الهذليين ج ١ - ص ١٢٠

^٢ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ج ٢ - ص ٣٥٣

^٣ ديوان حسان بن ثابت - عبد الرحمن البرقوقي ص ٢٨

^٤ ديوان حسان بن ثابت - عبد الرحمن البرقوقي ص ٤٠